المستشرقون

وتأثرهم بالفكر اللغوي الغربي في دراسة العربية

د. عصام فاروق

الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المستشرقون وتأثرهم بالفكر اللغويِّ الغربيِّ

في دراسة العربيَّة

(المدخل والمظاهر والآثار) [1]

د. عصام فاروق

كلية البنات الأزهريَّة بالعاشر من رمضان- جامعة الأزهر

(1) ألقي هذا البحث في مؤتمر: (الدراسات العربية في عالم متغير) بكلية الألسن – جامعة عين شمس، بمصر بتاريخ ٢٦ نوفمبر ٢٠١٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مقدمة:

من الثابت أن لكل لغة خصائص ذاتية، ومقومات دينية واجتماعية وحضارية لابد أن تُراعى من قِبَل متعلّمها إذا كان من غير أبنائها؛ لأن من بين أخطاء تعلُّم اللغة الثانية تأثرَ الدَّارسِ بعاداته اللغوية في لغته الأمّ، وفي الصدارة منها العاداتُ الصوتيةُ.

وليس أمرُ اختلاف اللغات عن بعضها البعض مقصورًا على مجال التَّعلُّم فقط، وإنَّما يفرض نفسه -كذلك- على الدَّرس والتَّحليل؛ فما يصلح لدراسة لغةٍ ما – من حيث استعمال المناهج، واستجلاء الأسس، ووضع النظريات– قد لا يتناسب بشكل عامٍّ مع لغةٍ أخرى؛ مما يجعل تعميم مبادئ الدرس اللغوي في لغة أو فصيلة معينة على لغة أخرى ذات خصائص مختلفة من الخطأ العلمي؛ لعدم مراعاته شخصية اللغة المطبَّق عليها، وليّه — في بعض الأحيان– عنق نصوصها وقواعدها، بما يخدم الفكرة المنشودة. لكنّ ذلك قد يجعل من دراسته هدفًا واضحًا لسهام النقاد والمستدركين.

من هنا تأتي فكرة هذا البحثِ التي توضح مدى تأثرِ المستشرقين في دراسة اللغة العربيّة بالتفكير الغربي في الدرس اللغوي، من حيث مظاهرُ ذلك التأثر، والآثار المترتبة عليها في آرائهم ونظرياتهم اللغويّة الخاصة باللغة العربية التي قد توفّق أحيانًا، بينما تخفق في تحقيق أهدافها أحايين أخرى؛ نظرًا لاختلاف الخصائص اللغويّة بين لغاتهم واللغة العربيّة من جانبٍ، واختلاف البيئات الاجتماعيّة والنفسيّة والثقافيّة والدينيّة بين العربية وهذه اللغات من جانبٍ آخر.

ومما لاشك فيه أن للغة العربية–على وجه الخصوص– خصائصَ ذاتيةً، ومقوماتٍ دينيةً واجتماعيةً وثقافيةً ونفسيةً وحضاريةً تجعلها مختلفةً عن غيرها من اللغات، حتى تلك التي تشترك معها في أرومة واحدة، مما يجعل لها شخصية مستقلة، تتطلب معالجات لغوية خاصة، وتناولا مختلفًا في كثير من الأحيان عن ما يُطبق على لغات أخرى، فإذا تنوسيت هذه الخصائص وتلك المقومات، أو لم يتم اعتبارها لسبب أو آخر، وجدنا بعض الآثار السلبية التي تحول دون وصول الدَّارس إلى الهدف المنشود من دراسته، أو تجعل رأيه أو نظرياته غير مكتملة الأركان.

ويسعى هذا البحثُ إلى فحص مجموعة من الأهداف، ومناقشتها، وبيان حقيقتها، وهذه الأهداف هي:

أوّلًا– بيان بعض مواطن اختلاف الفكر اللغوي العربي عن نظيره الغربي.

ثانيًا– إظهار بعض المقومات الذاتية للغة العربية، بالإضافة إلى المقومات الدينية والاجتماعية والحضارية التي تجعلها مختلفةً عن غيرها من اللُّغات، مما يستدعي اختلاف أساليب الدِّراسة والتَّحليل المطبقة على غيرها.

ثالثًا– بيان بعض المظاهر الدالة على تأثر المستشرقين في دراسة اللغة العربيّة بالفكر اللغوي الغربي.

رابعا– بيان الآثار السلبية المترتبة على هذه المظاهر في نظرياتهم ورؤاهم اللغويّة الخاصة بالعربية.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ويطمح هذا البحث أن يحقق هذه الأهدافَ، وأن يفحصها من خلال المبحثين التاليين:

الأول: المستشرقون وتأثرهم بالفكر اللغوي الغربي في دراسة العربية (المدخل)

الثاني: المستشرقون وتأثرهم بالفكر اللغوي الغربي في دراسة العربية (المظاهر والآثار)

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في مقدمة ومبحثين. أما **المقدمة** فتناولت أهمية موضوع البحث وأهدافه، وتقسيماته. وأما **المبحث الأول** فتناول: الفكر اللغوي عند كل من العرب والغرب مع موجز عن تاريخ الاستشراق. وأما **المبحث الثاني** فتناول مظاهر تأثر المستشرقين بالفكر اللغوي الغربي في دراسة العربية وآثار تلك المظاهر.

الجديد و الحصري NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المبحث الأول

المستشرقون وتأثرهم بالفكر اللغويِّ الغربيِّ في دراسة العربيَّة

(المدخل)

أولًا– خصائص الفكر اللغويِّ العربيِّ:

توافرت للفكر اللغوي العربي بعض الخصائص والسمات والمقومات التي ربما لم تجتمع لأمة أخرى غير العرب ليخرُج نتاجُها اللغويُّ متميزًا وشاملا ومستقرًا عبر مراحل تاريخيةٍ ممتدةٍ. وسوف نسلط الضوء – هنا– على مجمل هذه الخصائص بما يعطي للقارئ تصورًا واضحًا عن ذلك التفرد، وتنتظم هذه الخصائص فيما يلي:

الخاصيَّة الأولى: ارتباطُ الفكر اللغوي العربي بالقرآن الكريم.

ذلك الارتباط الذي تتجلى مظاهرة في بعض المظاهر التي منها:

أولًا– يدينُ الفكرُ اللغوي العربي في نشأته وتطوره إلى القرآن الكريم، فمن أجل حفظه وصيانته من اللحن قُعِّدت القواعد، وصنفت المصنَّفات في معظم العلوم اللغويَّة من نحوٍ وصرفٍ ومعاجمَ وأصواتٍ، بدءًا من العصر العباسي الأول. و" ما وجد في القرن الأول من تأملات نحويَّة أو محاولات لدراسة بعض المشكلات اللغويَّة كان الحافز إليه إسلاميًّا"[1]. وهذه بعض الشواهد التي تؤكد ذلك:

١– محاولات جمع الكلمات الغريبة في القرآن الكريم، ذلك الجهد الذي يمكن وصفه بالمعجمي على يد ابن عباس في (غريب القرآن) – إن صحت نسبته إليه– وفي هذا الاتجاه سار كلٌّ من ألَّف في غريب القرآن الكريم[2].

٢– ما عُرف بسؤالات نافع بن الأزرق لابن عباس، وما تنطوي عليه من ربط بعض الألفاظ القرآنية بما يوافقها من ديوان العرب (الشِّعر).

٣– وَضْع أبي الأسود الدؤلي لضبط المصحف، والمعروف بـ(ضبط الشَّكل)؛ وهو عمل لغوي يهدف إلى المحافظة على الأداء القرآني.

---

[1] البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر (٧٩) د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط. ثامنة، ٢٠٠٣م.

[2] ينظر: المعجم العربي نشأته وتطوره (٣٣) د. حسين نصار، مكتبة مصر، ط. الرابعة، ١٤٠٨هـ–١٩٨٨م.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثانيًا- يعد القرآن الكريم المصدرَ الأولَ من مصادر التقعيد النحوى، والاحتجاج اللغوي على وجه العموم؛ ذلك أن اللغويين والنحويين رأوا فيه " أعلى درجات للفصاحة، وخير ممثل للغة الأدبية المشتركة، ولذا وقفوا منه موقفًا موحدًا فاستشهدوا به. وقبلوا كل ما جاء فيه، ولا يعرف أحد من اللغويين قد تعرض لشيء مما أثبت في المصحف بالنقد والتخطئة"[1]

وقد انعكست هذه الهيمنةُ القرآنيةُ على الدراسات اللغوية في جانب التحديد المكاني للاحتجاج اللغوي، فكما هو معروف " لا يتجاوز عصر الاحتجاج ولا يتخطى بيئات مكانية محددة تمثلها قبائل معينة، وهي أقرب القبائل إلى تمثيل لغة القرآن"[2] ويستمر هذه البُعد الديني حتى في تقسيم الشعراء بحسب بزوغ فجر الإسلام ما بين جاهليين، ومخضرمين، وإسلاميين.[3]

وما انفكت محاولات الذَّبِّ عن اللغة العربية انطلاقًا من هذا الوازع الديني إلى يوم الناس هذا، من جانب الغيورين على كتاب الله، والمستجلين لأسرار لغته وكنوزها.

الخاصيَّة الثانية: طريقة جمع اللغة.

تلك الطريقة الدقيقة التي اعتمد فيها اللغويون على وأطرٍ زمانيَّة ومكانيَّة صارمة، ومصادر بعينها، نستطيع الوقوف أمامها قليلا في السطور التالية:

أولًا- على المستوى المكاني: حددوا قبائل بعينها لا تؤخذ اللغةُ إلا من ألسنتهم. هذه القبائل هي: " قيس وتميم وأسد ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ لا من قبيلة لخم ولا من جذام؛ لأنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط، ولا من قضاعة ولا من غسان ولا من إياد؛ لأنهم كانوا مجاورين لأهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون في صلاتهم بغير العربية، ولا من تغلب ولا من النمر؛ لأنهم كانوا مجاورين لليونانية، ولا من بكر؛ لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس.. إلخ.[4]

ثانيًا- على المستوى الزماني: بدأ الإطارُ الزمانيُّ لعملية الجمع من النظر في أقدم النصوص الواردة قبل الإسلام بحوالي قرن ونصف القرن، مرورًا بصدر الإسلام، حتى منتصف القرن الثاني الهجري في الحضر (الأمصار)، ومنتصف القرن الرابع الهجري في البادية وهو ما يُعرف بـ (عصور الاحتجاج)[5].

---

[1] البحث اللغوي عند العرب (١٧).

[2] المستشرقون والمناهج اللغوية (٢٥) د. إسماعيل عمايرة، دار حزين — الأردن، ط. ثالثة ١٩٩٢م.

[3] ينظر: الاحتجاج بالشعر في اللغة (الواقع ودلالته) (٧٨) د. محمد حسن جبل، دار الفكر العربي ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

[4] ينظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها (١/٢١١، ٢١٢) جلال الدين السيوطي، ت: محمد أحمد جاد المولي وآخرين، مكتبة الإيمان، ط. ثالثة.

[5] ينظر: الغرض من قرارات المجمع والاحتجاج لها(٢٠٢)، الشيخ أحمد الاسكندري مجلة مجمع اللغة العربية، العدد الأول ١٣٥٣هـ-١٩٣٤م.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن الواضح أن مقياس هذين المستويين (المكاني والزماني) هو الاختلاط بالأعاجم أو عدمه، وبناءً عليه تقاس الفصاحة وسلامة اللغة من عدمها[1] وما خالف هذين المستويين يعد عند اللغويين مما لا يحتج به، فقد " تجنب اللغويون الاحتجاج في مؤلفاتهم بشعر المولدين – تأثرًا بنطق الاحتجاج– تجنبا شبه كامل. وتتضح صورة هذا التجنب على حقيقتها ببيان مدى خلو تلك المؤلفات من الاحتجاجات اللغوية بشعر المولدين في ضوء بحث واقع تلك المؤلفات من هذا الجانب بحثًا علميًّا." [2]

ثالثًا– على مستوى المصادر: فقد اعتمدوا في عملية الجمع على مصادر بعينها، تُمثل النموذج الأعلى للفصاحة والبلاغة التي يمكن التقعيد على أساسها، منها:

١-**النص القرآني**، لاشك أن المصدر الأول لجمع اللغة وتقعيدها هو القرآن الكريم، الذي تحدى الله – عز وجل– به العربَ أربابَ البلاغة والفصاحة.

٢- **الشِّعر**، فلقد كان من مصادرهم التي اعتمدوا عليها ما ورد من شعر جاهلي وإسلامي، في حدود الإطار الزماني الذي تحدثنا عنه. والشهر كما هو معروف ديوان العرب الذي تناقلته الأجيال كإرث تجب صيانته وتواتره بين الأجيال المتعددة.

٣- **مشافهة العرب**: فقد كان الارتحال إلى البادية وتسجيل اللغة في أفواه أهلها من أهم الطرق التي اعتمد عليها اللغويون في عملية الجمع، فلقد كان هؤلاء العلماء يخرجون إلى البادية " يمضون الأعوام فيها، ويخالطون الأعراب، ويؤاكلونهم، ويشاربونهم، ويسمعون منهم ويدونون، يسمعون من الرجل والمرأة والغلام يتحدثون عن الإبل والمرعى والزواج والطلاق وجميع شؤونهم، ويصغون إليهم، وينقلون عنهم، وقد كثر ذلك من العهد الأموي إلى العصر العباسي الأول إلى ما بعده" [3]

٤-**الأخذ عن العلماء**: فنجد أنه بعد " الرعيل الأول من العلماء كانت أحد المصادر أخذ العلماء عمن قبلهم" [4]

الخاصيَّة الثالثة: ظهور اللغة الأدبية المشتركة وانزواء اللهجات القديمة.

فقد كان للعرب مستويان لغويان:

المستوى الأول: وهو يمثل المستوى الثقافي، الأدبي، الموحد، الذي يظهر في معظم النتاج الأدبي للشعراء والخطباء وداخل الندوات الجامعة، وهو ما عرف باللغة المشتركة، فقد " كانت العرب تحضر الموسم في كل عام، وتحج البيت في الجاهلية، وقريش يستمعون لغات العرب، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به، فصاروا أفصح العرب، وخَلت لغتهم من مستبشع اللغات، ومستقبح الألفاظ "[5]

---

[1] ينظر: الاحتجاج بالشعر في اللغة (٨٤).

[2] السابق (٨٩).

[3] ضحى الإسلام (٢/٢٥٦، ٢٥٧) أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية ١٩٣٥م.

[4] ضحى الإسلام (٢/٢٥٧).

[5] المزهر (١/٢٢١).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن هنا فقد لجأ الخاصة من العرب على اختلاف لهجاتهم " إلى تلك اللغة النموذجية التي نشأت في مكة، في شئونهم الجدية يخطبون بها وينظمون الشعر، وينفرون من صفات اللهجات في هذا المجال، حتى إذا عادوا إلى بيئاتهم تحدثوا إلى الناس في الشئون العامية بمثل لهجتهم، لئلا تنفر منهم النفوس." [١]

حتى إذا أهلّ نور الإسلام "وأراد أن يتألف قلوب العامة والخاصة معًا، سمح بأن يُقرأ القرآن الكريم ببعض تلك الصفات التي لم تكن في مقدور العامة غيرها، فالقرآن الكريم وإن نزل بلغة أدبية موحدة، أبيح في قراءته الخروج من تلك اللغة الموحدة؛ تيسيرًا على عامة العرب، وتأليفا لقلوبهم"[٢] لكننا لابد أن ننتبه إلى أن هذه الرعاية للاختلافات اللهجية كانت عارضة، زالت مع الخوف من الافتراق والاختلاف في قراءة كتاب الله، على نحو ما قدمه عثمان بن عفان – رضوان الله عليه- من نَسْخِ المصاحف في نُسَخ محددة معتمدة، وإرسالها إلى الأمصار للتقيد بما جاء فيها، وحرق ما خالفها.

المستوى الثاني: يمثل المستوى التخاطبي العادي، المؤطَّر بحدود القبيلة، حيث تمسكت كل قبيلة بصفاتها الكلامية، في حديثها العادي وفي لهجات التخاطب، مما خلف لنا إرثا لهجيًّا، بقى منه أقل مما فُقِد.

والسؤال المهم- هنا- هو كيف كان يتعامل العلماء مع هذه اللهجات أو بتعبير آخر كيف كانوا يرون مكانها داخل النظام اللغوي العربي؟

لم يكن كثير من العلماء يُعنى بغير اللغة الأدبية التي تمثلها لغة والقرآن وعيون الشعر العربي، وبالتالي وجدت اللهجات العربية القديمة إهمالًا تجلت مظاهره في أنهم " لم يروَ عنها إلا القليل في ثنايا كتب اللغة والأدب والتاريخ، بل إن ما روى عنها جاءنا مبتورًا ناقصًا في معظم الأحيان. ولسنا نعلم مؤلِّفا من علماء العرب، على وفرتهم واهتمامهم بكل دقائق الدراسة اللغوية، قد عُني باللهجات العربية عناية خاصة فأفرد لها كتابا مستقلا." [٣] حتى أن ما ورد عنهم مما يحمل مصطلح اللغات (اللهجات)[٤] يتضح من دراسة ما تحمله ثناياها من نصوص أنها "كانت نوعًا من المعاجم، وأن مؤلفيها لم يكونوا يهتمون – إلا في القليل- بعزو اللهجات إلى أصحابها"[٥] كما أنَّ البعض منها يختص بنوعٍ محددٍ من اللهجات هو الوارد في كتاب الله، من مثل كتاب (لغات القرآن للفراء).

أما أسباب إهمال العلماء للهجات القديمة، فمنها:

---

[١] في اللهجات العربية (٤٦) د. إبراهيم أنيس، ط ثامنة، ١٩٩٠م.

[٢] في اللهجات العربية (٤٧).

[٣] السابق (٤٧).

[٤] ذكر الدكتور أحمد علم الدين الجندي قائمة بهذه الكتب، ينظر: اللهجات العربية في التراث (١٤٣) الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

[٥] اللهجات العربية في القراءات القرآنية (٤٧) د.عبده الراجحي، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٦م.

أ) **الدافع الدينيّ**، ومفاد هذا السبب أنه " لما أخذ العلماء في كتابة اللغة وجمعها وتدوينها نظروا إلى اللهجات على أنها شيء لا ينبغي الاهتمام به؛ لأنه المهم هو الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم، ويمكن فهمه على أساس دراستها، وكذلك في فهم سنة النبي الكريم، وهنا توافروا على الاهتمام بالفصحى ونبذ اللهجات." [١]

ب) **الدافع القوميّ**، وخلاصة هذا السبب أنه عندما " اتسعت الدولة العربية حتى شملت دولًا كثيرةً، فكان لابد لضمان وحدتها، والقضاء على عوامل الفرقة فيها ألا تعطى اللهجات العربيَّة من العناية ما قد يزيد من عصبيَّة القبائل ويباعد بينها "[٢]

ج) **الدافع اللغويّ**؛ ذلك أن " شرط اللغة الاطراد والتوحد في الخصائص. فمحاولة بناء قواعد اللغة العربية على كل ما روي عن القبائل، يؤدي حتمًا إلى التناقض، ويبعد باللغة عن الانسجام والاطراد في الخصائص"[٣]

الخاصيَّة الرابعة: بدء تقعيد النحو العربي.

من الأسس التي يعتمد عليها الوصفيون في تطبيق منهجهم الوصفي ما يلي:

أولًا– جمع المادة العلمية؛ اعتمادًا على السماع مما يطلق عليه (الراوي اللغوي) أو غيره.

ثانيًا– تحديد وحدة زمنيَّة وأخرى مكانيَّة تدور في فلكهما الظاهرة اللغويَّة المدروسة.

ثالثًا– التقسيم بالانتقال من الكليات المدروسة إلى جزئياتها المنبثقة عنها.

رابعًا– التجريد بخلق مصطلحات تدل على تلك الأقسام.

خامسًا– التقعيد الذي يعتبر النتيجة الطبيعية لكل هذه الخطوات السابقة.

إذا كانت هذه هي الأسس التي تنبني من خلالها الدراسة الوصفيَّة، فإن محاولة تطبيقها على النحو العربي – في طور نشأته– تظهر لنا أنها كانت بدايةً وصفيَّةً؛ لاعتماد التأليف النحوي المتقدم على مثل هذه الأسس.

وسأكتفي بدليلٍ واحدٍ على ذلك يتمثل في اعتماد الإمام سيبويه في كتابه على السماع، وهو من أهم إجراءات جمع المادة العلمية " فقد اهتم سيبويه بالمسموع من اللغة جريا على طريقة أساتذته، ومنهجهم في وصف اللغة إيمانا منه بأن اللغة المجموعة عن طريق السماع هي المعين الرئيسي للاتصال بناطقي اللغة، والسبيل الوحيد لربط البحث اللغوي بالواقع، ودليل قاطع على صدق الأحكام اللغوية المستقراة. وتنوعت مصادر السماع عند سيبويه بين الأخذ المباشر من أفواه العرب، أو السماع عن طريق شيوخه، وقد يستعين ببعض من العرب، الذين ينتمون إلى قبيلة معينة تشعبت أماكن سكانها، أو برجلين أو برجل واحد من

---

[١] اللهجات العربية نشأة وتطورا (١٠٧) د.عبد الغفار هلال، ط. ثانية ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

[٢] في اللهجات العربية (٤٧).

[٣] السابق (٤٨).

العرب، وكل ذلك دليل حرصه على جمع أكبر عدد من البيانات اللغوية من اللهجات المنتشرة على الرقعة الجغرافية في الجزيرة العربية"[١]

ونؤكد هنا على فكرة أن الوصفية كانت هي السمة الواضحة لبدايات التأليف في النحو العربي؛ فقد تغير هذا الوضع بعد ذلك، حيث بدأت دراسة النحو" وازدهرت، وكانت في بدئها وسيلة إلى غاية، ولكنها سرعان ما أصبحت غاية في نفسها متعددة الوسائل والطرق. كانت في مبدئها تقوم على الاستقراء والتقعيد، فأصبحت بعد زمن تقوم على القاعدة والتطبيق، وخلف بعد الرعيل الأول من رجالها خلف وقفوا من النحو موقف المتكلمين من الدين. كان الدين سمحًا فطريًّا فجعله المتكلمون فلسفةً وقضايا منطقيَّةً، وكان النحو سهلًا هينًا وصفيًّا فجعله النحاة فلسفةً وقضايا معياريَّةً منطقيَّةً أيضًا، حتى أصبح الطابع المميز للنحو العربي أنه لم يعد مجهودًا دراسيًّا لغويًّا بقدر ما تحول إلى مجهود فكري من الطراز الأول. وإذا كان الناس يعجبون بمجهود النحاة – وحقهم أن يعجبوا- فما ذلك لبساطة العرض، أو صدق النظرة، أو كفاية المنهج بقدر ما هو لعمق الفكرة وبراعة الجدل واللون الفلسفي الذي في كتبهم"[٢]

ولكنّ الدكتور تمام حسان ينتصر لهذا التحول عند المتأخرين من النحاة بقوله: "ولكن إيقاف الاستشهاد إلى حد معين جعل النحاة وقد جفت روافد الاستقراء عندهم كما قلنا يلجأون إلى ما لديهم من القواعد، فيجعلونها مادة الدراسة بدل النصوص التي أعوزهم الجديد منها، وما دامت القواعد نفسها هي الهدف، وهي مادة الدراسة فلا مهرب إذا من النظرة إلى هذه القواعد باعتبارها مقاييس ومعايير من صلب المنهج، لبيان الصحيح والخطأ من التراكيب، أي أن المستوى الصوابي بدل أن يكون فكرة اجتماعية يراعيها المتكلم أصبح فكرةً دراسيَّةً يراعيها الباحث." [٣]

ثانيًا- خصائص الفكر اللغوي الغربي:

يكاد يتفق معظم مؤرخي اللغة على أن الدراسة اليونانيَّة القديمة هي نقطة البدء الأساسيَّة التي يمكن الانطلاق منها إلى دراسة الفكر اللغويّ الغربي " لأن المفكرين اليونان الذين فكروا في اللغة وفي المشكلات التي تثيرها البحوث اللغويَّة، قد استهلوا في أوروبا الدراسات التي يمكن أن نطلق عليها العلم اللغوي بمعناه الواسع، ولأن هذا العلم كان مركز اهتمام مستمر منذ اليونان القدماء، وحتى العصر الحاضر في تتابع متصل للمعرفة "[٤] ومن ثم فإننا – اقتفاءً لهذا المنهج- سنبدأ حديثنا عن الفكر اللغوي الغربي من الدراسات اللغويَّة في اليونان قديمًا.

---

(١) المنهج الوصفي في كتاب سيبويه (٣٨) نوزاد حسن أحمد، جامعة قاريونس- بنغازي، ط. أولى ١٩٩٦م.

(٢) اللغة بين المعيارية والوصفية (١٦٧) د.تمام حسان، عالم الكتب، ط: الرابعة ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

(٣) السابق (١٦٧، ١٦٨).

(٤) موجز تاريخ علم اللغة في الغرب (٢٧) ر.هـ. روبنز، ترجمة: د. أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٢٧، سنة ١٩٩٧م.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

" فقد بدأت الدراسات اللغوية في اليونان قديما على أيدي مجموعة من الفلاسفة، ومن ثم فإننا سنلاحظ وجودا كبيرا للاتجاه الفلسفي في هذه الدراسات – أو بالأحرى المناقشات– ويعود ذلك إلى اهتمام الإغريق القدماء بالفلسفة بوجه خاص، وإلى أن أوائل من نظروا في اللغة منهم كانوا من الفلاسفة؛ ولذلك فقد اتجهت دراساتهم نحو البحث في مسائل عامة اتسمت بكثير من التجريد"[١] ولا غرو أن ينشغل "جميع أعلام الفلاسفة القدماء بالتنظير اللغوي، ولو بطريقة عرضية في الأقل. واشتملت المحاورات الفلسفية – عادة– على مناقشات ذات صلة مباشرة بالقضايا اللسانية"[٢] ومنها تلك المسائل التي هي من أقرب نقاط الالتقاء بين الفلسفة واللغة من مثل أنهم ""تساءلوا عن ماهية اللغة، وعن أصلها، وعن ماهية الكلمة، وتساءلوا هل هناك علاقة طبيعية وضرورية بين الكلمة وبين الشيء الذي ترمز إليه؟ أتعلق المعاني بالكلمة أم تعلق بالطبع أم تعلق بالاصطلاح؟"[٣]

فإذا انتقلنا إلى وضع "القواعد التفصيلية للغة اليونانية القديمة فسنجد أن الإغريق تأخروا تأخرا يدعو للدهشة، وعندما بدءوا يفعلون ذلك خلال العصر السكندري في القرن الثاني قبل الميلاد وما بعده، وتبعهم الرومان في ذلك، وضعوا لكل من اللغتين قواعد تتميز بخاصتين.. الأولى: هي أن كلا من الشعبين وضع قواعد لما يمكن أن ندعوها اللغة الفصحى، وهي اللغة التي لم تكن هي المستعملة فعلا في الوقت الذي وضعت فيه تلك القواعد. بتعبير آخر، فإنهم لم يصفوا قواعد اللغة التي كان يستعملها الناس في عصرهم، بل وضعوا قواعد أو معايير لما يجب أن تكون عليه اللغة، وهذه هي ما تسمى (القواعد المعيارية) التي لم تتغير بتعاقب القرون، بحيث أصبحت في النهاية تشير إلى لغة غير موجودة ولا مستعملة إطلاقا"[٤] وعلى ذلك "فالنحو اليوناني بهذا الاعتبار نحو تقعيدي تعليمي. ليست الملاحظة الموضوعية الخالصة هي الغالبة إذن، بل الرغبة في التوفيق، بكل وسيلة ممكنة، بين اللغة والمنطق، ووضع كلمات اللغة وتعبيراتها و.. إلخ في قوالب تيسر تعلمها. فالنحو اليوناني منطقي تربوي"[٥] وقد اعتبر البعض الربط بين اللغة والمنطق والفلسفة السبب الوحيد لتخلف النحو الأغريقي " ولعل السبب الوحيد الذي أدى إلى تخلف النحو الإغريقي وعدم إحكام قواده أن النحاة الإغريق كانوا مرتبطين بأسس ومبادئ منطقية وفلسفية كثيرا ما اعترضت طريقهم نحو الملاحظة العلميَّة، وقادتهم إلى استعمال المنهج الاستدلالي لا الاستقرائي"[٦]

---

[١] أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة (٧٩) د. نايف خرما، سلسلة عالم المعرفة، العدد التاسع، ١٩٧٨م.

[٢] اتجاهات البحث اللساني (٩) ميلكا إفيتش، ترجمة سعد مصلوح، وفاء كامل، ط المجلس الأعلى للثقافة، ثانية ٢٠٠٠م

[٣] علم اللغة مقدمة للقارئ العربي (٢٥٨، ٢٥٩) د. محمود السعران، دار الفكر العربي، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

[٤] أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة (٧٩، ٨٠) بتصرف يسير.

[٥] علم اللغة مقدمة للقارئ العربي (٢٦٠).

[٦] أسس علم اللغة (٢٢٧) ماريو باي، ترجمة: أحمد مختار عمر، عالم الكتب ط ثامنة ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

و"أما الخاصيَّة الثانيَّة: فهي أن الإغريق والرومان من بعدهم لم يهتموا بلغة غير لغتهم.. ويمكن القول سبب ذلك في اعتقادهم بأن تلك القواعد منطقيَّة، وتبعا لذلك فهي عامَّة يمكن أن تطبق على أيَّة لغة أخرى"[١]

فإذا انتقلنا إلى العصور الوسطى[٢] في أوروبا لا نجد "خطوات أصيلة في الدراسات اللغويَّة، وكان الأمر السائد هو تعليم اللغة اللاتينيَّة. وقد نظمت قواعد النحو اللاتينيّ شعرًا في القرن الثالث عشر، ولم يضف علماء هذه العصور شيئًا جديدًا إلى القواعد اللاتينيَّة التي وصل إليها القدماء، ولكنهم عرضوها بصورةٍ أكثر إتقانًا"[٣]

ويتأتى هذا الاهتمام باللغة اللاتينية نتيجة أنها كانت اللغة الأصلية التي تفرعت عنها اللهجات المحلية في كل بيئة أوروبية.

ثم إذا انتقلنا إلى بزوغ عصر النهضة (من القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي) وجدنا اتساعًا للمجال الأوروبيّ، والذي باتساعه "أولا: نتيجة للحروب الصليبيَّة، وثانيًا: بسبب الرحلات والاكتشافات والزيارات الجغرافيَّة، أخذت النَّافذة تتسع لتطل على لغاتٍ أخرى جديدةٍ غربيَّةٍ، شرقيَّةٍ قصيةٍ، وإفريقيَّة، وهنديَّة، أمريكيَّة، وهي لغاتٌ لا يصلح لها تطبيق المعايير النحويَّة القديمة الشائعة إلا بالإكراه"[٤]

وهذا الانفتاح على اللغات المختلفة التي قد تتفق أو تختلف في بعض أنظمتها وقواعدها مع ما ألفه الأوربيون في لغتهم كان تمهيدًا لما ظهر فيما بعد من دراسات مقارنة، وكان من أشهر المهتمين بها وليام جونز، وتبعه آخرون، حيث قارنوا ما بين بعض اللغات ومن بينها السنسكريتيَّة واللاتينيَّة، ومن ثم وجدنا القرن التاسع عشر يصطبغ بصبغة تاريخيَّة، تعمل على ربط الوشائج المقطعة بين بعض اللغات القريبة أو المتفرعة عن أصلٍ واحدٍ.

ولكن هذا لا ينفي وجود بعض محاولات السابقة على هذا الانفتاح من مثل ترجمة مارتن لوثر لبعض الكتب الدينية وما لهذا من أثر واضح في احتفاظ الألمانية بالإعراب.

حتى إذا أهلّ القرن العشرون تبلورتْ فيه الكثير من القضايا والبحوث اللغويَّة، واستوت على عودها. ولئن غلبت على القرن التاسع عشر الصبغة التاريخيَّة، وجدنا للدراسات الوصفيَّة الكلمة العليا في هذا القرن، ففيه تبلورت حدود المنهج الوصفيّ كمنهجٍ قائمٍ على أسس ومبادئ محددة. والانصراف إليه في الغالب الأعم عن الدراسات التاريخيَّة، خصوصًا على يد العالم السويسري فردينان دي سوسير، الذي لم يكن له فقط إسهاماتٌ كبيرةٌ في الدراسات الوصفيَّة بل إنه يعتبر مؤسس علم اللغة الحديث.

---

[١] أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة (٨٠) بتصرف يسير.

[٢] هي: "فترة من التاريخ الأوروبي تقع ما بين تفكك الإمبراطورية الرومانية (أواخر القرن الثالث الميلادي) وبين سلسلة الوقائع والتغيرات الثقافية التي عرفت بعصر النهضة، واعتبرت بشكل عام مرحلة بداية للعصر الحديث (بداية من القرن الخامس عشر الميلادي)" ينظر: موجز تاريخ علم اللغة في الغرب (١٠٧).

[٣] علم اللغة مقدمة للقارئ العربي (٢٦٢).

[٤] أسس علم اللغة (٢٣١).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ثالثًا- موجز تاريخ الاستشراق:

ليس من اليسير تحديد البداية الأولى للاستشراق، فلم " يعرف بالضبط من هو أول غربي عُني بالدراسات الشرقيَّة ولا في أي وقت كان ذلك، ولكن المؤكد أن بعض الرهبان الغربيين قصدوا الأندلس إبان عظمتها ومجدها، وتثقفوا في مدارسها، وترجموا القرآن والكتب العربيَّة إلى لغاتهم"(1) ولذا يعتبر البعض أن الإرهاصات الأولى للاستشراق مرتبطةٌ بظهور أول ترجمة لاتينيَّة للقرآن الكريم في سنة ١١٤٣م، وقد نُسبت إلى الأب بطرس المبجل (ت ١١٥٧م) (2)

ومن هذه الخلفيَّة الدينيَّة لمن يمكن تسميتهم (المستشرقين الأوائل) فقد ربط مؤرخو الاستشراق ما بين التبشير والاستشراق، " فهما صنوان بل توأمان متلازمان يصعب التفريق بينهما في كثير من الأحيان، وبخاصة في بداية نشأتهما، فأول مؤسس لكرسي الاستشراق بجامعة أكسفورد هو رئيس الأساقفة واسمه (لود) وذلك في سنة ١٦٣٦م"(3) فمن الضروري للمنصِّرين معرفة لغة القوم الذين يريدون أن ينشروا بينهم دينهم، ولا يتوقف الأمر عند المعرفة فقط، وإنَّما محاولة الاطلاع الواسع على واقع تلك اللغة وتراثها ونقل كثير من كتبها عن طريق الترجمة إلى لغة المبشِّر الأصليَّة، مع سيطرة روح التعصب وعدم انتهاج المنهج الموضوعي في الدراسات للتراث العربي والإسلامي، فهم " قبل كل شيء رجال دين، فأخذوا يهدفون إلى تشويه الإسلام في نفوس رواد ثقافتهم من المسلمين؛ لإدخال الوهن إلى العقيدة الإسلاميَّة والتشكيك في التراث الإسلامي والحضارة الإسلاميَّة وكل ما يتصل بالإسلام من علم وأدب وتراث"(4)

وفي حقيقة الأمر فإن **الدافع التنصيري** لم يكن الوحيد المتحكم في حركة اتجاه المستشرقين إلى دراسة العربية وآدابها، وإنما تضافرت معه دوافع أخرى، منها:

- **الدافع الديني**: فقد رأى الغرب أن الحضارة الإسلاميَّة الحديثة قد زعزعت أسس العقيدة عند الغربيين، وأخذت تشككهم بكل التعاليم التي كانوا يتلقونها عن رجال الدين عندهم فيما مضى، فلم يجدوا خيرًا من تشديد الهجوم على الإسلام بصرف أنظار الغربيين عن نقد ما عندهم من عقيدة وكتب مقدسة.

---

(1) الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم (١٧) مصطفى السباعي، دار الوراق- المكتب الإسلامي.

(2) تاريخ حركة الاستشراق (الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين) (١٣ و ١٧) يوهان فوك، ترجمة: عمر لطفي العالم، دار المدار الإسلامي، ط: ثانية، ٢٠٠١م.

(3) المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية (١٦) د. إسماعيل عمايرة، دار حنين – عمّان، ط. ثانية، ١٩٩٢م. وينظر: المستشرقون (٩/٢) نجيب العقيقي، دار المعارف، ط. الخامسة، ٢٠٠٦م.

(4) الاستشراق والمستشرقون (٢١).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

- **الدافع الحضاريّ**: من المعروف أن صراعًا قويًّا نشأ بين الحضارة الإسلامية الناشئة والحضارة الأوروبية المتخلفة، وأن هذا الصراع قد اتخذ في بعض الأحايين المظهر العسكري من حروب صليبيَّة أو غيرها. فقد مرتْ أوروبا بفترةٍ كانت تتذبذب فيها حركتها في علاقتها بالإسلام بين الرغبة والرهبة، الرغبة في هذا الكم الثقافي والحضاري الذي خلفه المسلمون، ومحاولة الانقضاض الواسع على التهام هذا التراث الفياض، ونقله غضًّا طريًّا وإذابته في الحضارة الأوروبيَّة الناهضة. والرهبة من التوسع الإسلامي السريع الذي أصبح ينتشر في أوروبا انتشار النار في الهشيم، حتى وصل إلى البلقان ١٣٥٣م.
- **الدافع الاقتصادي- السياسي**: رأى المستعمرون الأوروبيون في الدول الإسلاميَّة والعربيَّة – على وجه الخصوص- لقمة سائغة لأطماعهم، خصوصًا بعد ضعف مركزيَّة الخلافة العثمانيَّة، فراح هؤلاء المستعمرون يجثمون على صدر هذه البلاد هيمنةً واستنزافًا. وقد برز بقوةٍ في هذا الاتجاه دور الشركات التجاريَّة في دعم المشروعات الاستشراقيَّة[١]؛ تيسيرا لشئونهم التجاريَّة والسياسيَّة وغيرها. [٢]
- **الدافع العلمي والثقافي**: فقد كان الغرب ينظرون في فترة إلى الحضاريَّة الإسلاميَّة بعين الإكبار والإجلال، لأن المسلمين ظلوا أساتذة للعالم قرونًا عديدةً، بل كان الشاب الغربي الذي يرغب في العلم يُيَمِّم وجهه شطر الشرق.[٣]

وبالعودة إلى النظرة التأريخيَّة للظاهرة الاستشرقيَّة نجد أن هناك الكثير من الكراسي المخصصة للغات الشرقيَّة في كثير من دول العالم منذ ما قبل عصر النهضة وإلى يومنا هذا، وهذا جانب منها:

- **في فرنسا**: أنشئت فيها كراسي للغات الشرقية منذ القرن الثاني عشر الميلادي.[٤].
- **في إيطاليا**: تم الاهتمام بالدراسات العربيَّة منذ عام (١٧٠٦) في جامعة بولونيا وغيرها. [٥]
- **في انجلترا**: هناك أكثر من ٥٦ جامعة ومعهدًا يعلم معظم اللغات الشرقية من أقدمها جامعة أكسفورد (١١٦٧م)[٦]
- **في إسبانيا**: من أقدم الجامعة التي خصصت كراسي للغات الشرقية جامعة صلمنكة (١٢٢٧م)[١]

---

[١] المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية (١٦) وينظر: المستشرقون (٩/٢).

[٢] فعلى سبيل المثال أسست شركة الهند الشرقية البريطانية كلية Haileybury ليدرس موظفوها لغات البلاد التي يتعاملون معها، ودرّست فيها العربية من بين هذه اللغات، إضافة إلى المعاهد والكليات التي ظهرت في أوروبا وفتحت أبوابها بغرض تعليم العربية للسياسيين والمستشارين الاقتصاديين والعكسريين وغيرهم.

[٣] ينظر: المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية (١٦) وما بعدها.

[٤] المستشرقون (١٣٨/١).

[٥] السابق (٤٠٥/١).

[٦] السابق (٩/٢).

- **في النمسا**: من أهم الجامعات التي خصصت هذه الكراسي جامعة فينا (١٣٦٥م)[٢]
- **في هولندا**: ومن أهم جامعاتها جامعة ليدن (١٥٧٥م) التي أنشأت كرسيًّا للعربيَّة عام (١٥٩٥) أي بعد نشأتها باثني وعشرين عامًا[٣]
- **في ألمانيا**: بما أن المدرسة الاستشراقيَّة الألمانيَّة من أنشط الحركات الاستشراقيَّة الأوروبيَّة، لذلك فإننا نجد في كثيرٍ من جامعاتها كراسي للغات الشرقيَّة، في جامعة هيدلبرج (١٣٨٦م)، كولن (١٣٨٨م ثم ١٩١٩م)، فورز بورج (١٤٠٢م، ١٥٨٢م)..إلخ [٤]

وقد ظهرت هذه الكراسي بسبب عوامل علمية كثيرة إلا أن الدافع التنصيري كان حاضرا ضمن قوائم الدوافع التي دفعت إلى تأسيسها.

---

(١) السابق (١٧٣/٢).

(٢) المستشرقون (٢٧٠/٢).

(٣) السابق (٢٩٥/٢).

(٤) السابق (٣٤٢/٢).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المبحث الثاني:

المستشرقون وتأثرهم بالفكر اللغوي الغربي في دراسة العربيَّة

(المظاهر والآثار)

ما تم تناوله في المبحث السابق من اختلافات بين خصائص كل من الفكرين العربي والغربي يستلزم بالضرورة اختلافاتٍ موازيةً في معالجة قضايا كل منهما، وبالتالي فإن عدم مراعاة تلك الخصائص المختلفة وقياس اللغات على معايير واحدةٍ خطأ منهجيٌّ يقع فيه بعض المستشرقين حينما يقيسون العربية على نفس المعايير التي يتناولون بها لغاتهم. وهذه مجمل المظاهر التي رصدناها لهذا التأثر وآثارُها على تلك المعالجات اللغوية:

المظهر الأول– الموقف من العربيَّة الكلاسيكيَّة:

اللغة الكلاسيكية كما رآها بعض المستشرقين – بنظرة تاريخية– هي تلك اللغة غير المحددة في دراستها بزمن معين، وفي الوقت ذاته المكتسبة لصفة القِدم، والتي تعتبر مرحلة من تاريخ اللغة – طالت أم قصرت– بينها وبين المراحل التالية لها كثير من الاختلافات الموزَّعة على مستويات اللغة المختلفة. فهم يرون " تاريخ اللغة – أي لغة– على أنه سلسلة من المراحل المتباعدة تاريخيًّا، حتى يصبح الفرق واسعًا بين ماضي اللغة وحاضرها، ويشمل الاتساع في الفروق بين المراحل اللغوية جميع الجوانب اللغوية من نحو وصرف وصوت ومعنى"[١]

ولذلك فمفهوم " الكلاسيكية عند المستشرقين مرتبط بالقِدم وأما مفهوم المعاصرة فمرتبط بالحداثة. وتاريخ اللغات الأوروبية يعرف هذين المفهومين، وما يترتب على كل منهما من تغيُّر واسع بين ماضي اللغة وحاضرها في جميع جوانبها"[٢]

وبناءً على وجود هذين المفهومين في الفكر اللغوي الغربي، فقد تأثر به المستشرقون في معالجتهم للعربية تأثرًا انعكس على نظرتهم لها –كما لغيرها من اللغات– على أن لها مرحلةً تاريخيةً تُعرف فيها بالكلاسيكية، ومن ثم استخدم البعض منهم مصطلح (العربية الكلاسيكية)، فهم "يسمونها العربية الكلاسيكية على نحو ما يسمون اللغات القديمة كاليونانية واللاتينية"[٣].

فمن الواضح أن المستشرقين اعتمدوا في استنباطهم لمفهوم الكلاسكية في اللغة وخصائصه على نظرتهم للاتينية أو للغاتهم القديمة التي بينها وبين لغاتهم الحديثة أوشاج مقطوعة، وإلى هذا الحد فلا مشكلة في تلك النظرة، وإنما تطل المشكلة برأسها حينما يجعلون مفهوم

---

(١) بحوث في الاستشراق واللغة (٣٢٨) د.إسماعيل عمايرة، مؤسسة الرسالة– دار البشير، ط. أولى ١٤١٧هـ– ١٩٩٦م.

(٢) السابق (٣٢٩).

(٣) المستشرقون والمناهج اللغوية (٨٩).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الكلاسيكية مقياسًا معياريًّا صالحًا لأن تخضع له اللغاتُ كلها؛ مما يُعد بعدًا عن المنهج العلمي السديد الذي لابد فيه من مراعاة تميز بعض اللغات وتفردها عن غيرها، ويترتب عليه بعض الآثار السلبية على النحو التالي:

آثار هذه النظرة:

وقد ترتب على هذه النظرة للعربية القديمة بعضُ الآثار السلبية، التي منها:

١- سخرية البعض منهم من تعلُّق العرب بالفصحى مع كونها من اللغات التي هُجرت منذ أمدٍ بعيدٍ أو في طريقها إلى الهَجْر، يقول المستشرق وليم بولك في تقديمه لكتاب (العربية الفصحى الحديثة) لستتكيفتش- ساخرًا من تعلُّق العرب بالفصحى: " أليست اللغة – قبل كل شيء- مجرد وسيلة اتصال، ومن ثم تقوم – بصورة أساسية- في ضوء الجوانب العملية؟ وإذا ما وجدت وسيلة أفضل متوفرة ألا ينبغي اتخاذها؟ أيمكن أن تكون ثمة مزية حقيقية في المحافظة على لغات لا تفي بما يطلب منها؟ لغات هجرت منذ أمدٍ أو في طريقها إلى أن تهجر؟"(١).

٢- اتهام البعض منهم للعربية الفصحى بالجمود والربط بينها وبين اللاتينية الكلاسيكية من هذه الوجهة، فكارل فولرس في كتابه (اللهجة العربية الحديثة في مصر) لم يفته " أن يندد في نهاية مقدمته بجمود العربية الفصحى وشبهها باللاتينية الكلاسيكية، وشبه العلاقة التي بينها وبين اللهجة المصرية بالعلاقة التي بين اللاتينية الكلاسيكية، والإيطالية الحديثة "(٢).

فهذا المقياس الذي وضعه الأوروبيون للغة الكلاسيكية يعمد المستشرقون إلى تطبيقه أثناء دراستهم للغة العربية بتاريخها المديد، غير منتبهين أو مبالين بما لها من خصوصيات ليست لكثير من اللغات، منها على سبيل المثال:

أولًا- أن للعربية بُعدًا دينيًّا في غاية الأهمية، وفي تجاهله تجاهل لخاصية أصيلة، فعلى سبيل المثال فإن كثيرًا من "المستشرقين لا ينظرون إلى اللغة العربية من خلال ربطها بالرسالة المنوطة بها، وهي حفظ القرآن الكريم، فكيف إذا جَمَعَ بعضهم إلى ذلك سوء النية المبيت"(٣) ولذلك فإن كثيرًا من الدعوات الداعمة للعامية لا تلقى قبولا في بيئتنا العربية؛ لتجاهل الداعين إليها البعدَ الدينيَّ لهذه اللغة، يقول أحد الباحثين: " إن مرد التوتر الناشب بين دعاة العامية وحماة الفصحى يعود بالدرجة الأولى – في رأيي- إلى اختلاف الفريقين في صلة الدين؛ أي دين باللغة؛ أي لغة، فصلة الدين باللغة عند دعاة العامية من المستشرقين والنصارى العرب لا تختلف عن صلة التجارة والحرب والسياسة بها. ولذلك تراهم يعتبرون التحول عن الفصحى إلى العامية أمرًا طبيعيًّا، في حين يراه دعاة الفصحى يعني الهلاك والفناء والاندثار؛ لأن صلة الدين الإسلامي عندهم – وعندي- ليست بأقل درجة من

---

(١) العربية الفصحى الحديثة (بحوث في تطور الألفاظ والأساليب) (١٨، ١٩) ستتكيفتش، ترجمة: محمد حسن عبد العزيز ١٩٨٥م. وينظر: المستشرقون والمناهج اللغوية (١١٢).

(٢) تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر (٢٥) د.نفوسة زكريا سعيد، ط: الأولى، ١٣٨٣هـ- ١٩٦٤م.

(٣) المستشرقون والمناهج اللغوية (١١٣).

شبكة الألوكة www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

صلة الروح بالجسد، وترى أنصار الفصحى يكتبون في هذا الشأن وكأنهم في المحراب يصلون صلاة المودع، أما كتّاب الغرب وأشياعهم فلا يعيرون صلة الدين باللغة أهمية أكبر فإن أمرَهم يختلف تمامًا فيما يكتبون"[١]

ثانيًا– لابد من التنبه إلى أن الوشائج المقطوعة بين اللاتينية واللغات الأوروبية الحديثة ليست هي نفسها الوشائج التي بين العربية الفصحى القديمة وما بين أيدينا الآن منها، ذلك " أن العربية تختلف عن سائر اللغات الأخرى في أصولها وتاريخها وحياتها، فالعربية حتى اليوم لا تزال قائمةً على أسسها المتينة، وأعمدتها الصلبة، لم تصبها الهزات التي أصابت اللغات الأخرى، فالنصوص التي بنى عليها الدارسون أبحاثهم وملاحظاتهم وخرجوا منها إلى القواعد والقوانين لا تزال معينًا لا ينضب، ولا تزال القيم التي تعد معايير للفصاحة والبيان الناصع للشعراء والخطباء والكتاب والمؤلفين هي هي... وذلك كله إنما ثبت بالنسبة للعربية ولم يثبت لغيرها من اللغات؛ لأن العربية تناسلت تناسلا طبيعيًّا، واحتفظت بأصالتها، وأصولها التركيبية والدلالية والصوتية والبنائية منذ أقدم عصورها فيما تناقلته الأجيال العربية من نصوصها الأدبية.. في حين فقدت اللغات الأوروبية هذه الخاصية، فانبتت أصولها، وابتعدت عن أمها اللاتينية التي أصبحت في عداد اللغات الميتة.. ومن هذا المنفذ دخل البنيويون ينظرون إلى اللغة على أنها الموجودة بين أيدينا، لا نعرف لها أصلا، ولا ننظر في تراثيتها، ولا نقارن بينها وبين ما كانت عليه، وإنما ينظرون إليها نظرة (آنية شمولية). ويعني ذلك أنهم مضطرون إلى هذا المنهج من الدراسة اللسانية لما تميزت به اللغة المدروسة من خصوصيات. فهل يا ترى حصل للعربية هذا الانبتار عن الأصل، حتى نضطر إلى تطبيق المنهج من جديد لدراستها ووضع قواعدها وفقا لمتطلبات مرحلتها؟! وما أظننا لو طبقنا المنهج البنيوي في دراسة نصوص العربية الصحيحة خارجين بأكثر مما خرج به النحويون العرب من أحكام وقواعد." [٢]

ثانيًا– الموقف من العربيَّة المعاصرة:

لقد كان من آثار انتقال الفكر اللغوي الغربي من الاتجاه التاريخي في دراسة اللغات إلى الاتجاه الوصفي أن أعطى الغربيون للهجات المعاصرة " عناية لم يعطوها اللغات الرسمية، وبخاصة إذا كانت هذه اللغات تقتصر على الكتابة دون الحديث كاللاتينية واليونانية القديمة مثلا" [٣] ولم تقتصر مظاهر هذه العناية على انتقال دفة الدراسة إلى تلك اللهجات –على حساب اللغات القديمة– فحسب، وإنما أصبح – في وقت لاحق – اعتبار "كل ما يقوله أغلبية الناس ويقبلون به كلامًا سليمًا بغض النظر عن اللغة المكتوبة

---

[١] قراءة جديدة في قضية الدعوة إلى العامية (٧٧، ٧٨) د.عبد الله أحمد خليل إسماعيل مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد الخامس– العدد الثاني، ١٩٩٧م.

[٢] البحث اللغوي وصلته بالبنيوية في اللسانيات (٥٦، ٥٧) بتصرف يسير. د. رشيد عبد الحميد العبيدي، مجلة الآداب بالجامعة المستنصرية– بغداد، العدد الثاني عشر، ١٩٨٥م.
دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط: خامسة، ١٩٨٤م.

[٣] المستشرقون والمناهج اللغوية (١٠٩).

الجديد و طرائف NEW & EXCLUSIVE

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التي تستعمل في الأدب وخلافه. فلم يعد هناك معيار للصواب والخطأ مفروض على أفراد المجتمع، بل أصبح كل ما يقوله مجتمع معين يعتبر لغةً سليمةً لا غبار عليها، وتستحق التسجيل في كتب القواعد، ولم يستبعدوا من ذلك إلا كلام السوقة، وأولئك الذين يتكلمون لهجاتٍ محليةً خاصةً بأفراد جماعةٍ معينةٍ، أو حي معين أو مهنةٍ معينةٍ، وحتى هذه – إن وجدت- فلها الدراسات الخاصة بها " [1]

وتأثرًا بهذا الاتجاه الغربي وانسحابه على الدراسات الاستشراقية، فقد " أصبح الاستشراق الحديث ينظر إلى العربية الفصحى المعاصرة على أنها تمثل مرحلة جديدة من عمر اللغة " [2] ومن ثم توالت الدعوات إلى دراسة اللهجات العربية الحديثة والاهتمام بها وإعطائها حقها من الدراسة والتحليل، بل وإحلالها محل الفصحى التي لم تعد إلا مجالا للكتابة الأدبية، والتي هي منبتة الصلة عن الاستعمال اللغوي المعاصر.

ولم يقف الأمر عند الدعوات إلى ذلك فقط، بل انتقل إلى الجانب التطبيقي في اتجاه موازٍ للدراسات الغربية، فقد " ظهر مع الاهتمام باللهجات ما عُرف باسم (الجغرافيا اللغوية، أو اللغويات الجغرافية) فقد نُشر أول أطلس لغوي ألفه جليرون وأدموند اسمه (الأطلس اللغوي لفرنسا) عام ١٩٠٢- ١٩٢٠م، وقد جاءت الدراسة الجغرافية للهجات في بلاد الشام مزامنة لذلك الأطلس الفرنسي، فقد نشر المستشرق الألماني برجشتراسر بحثه (الأطلس اللغوي لسوريا وفلسطين) سنة ١٩١٥م بعنوان: (Sprachatlas von syrien und palastina ZDPV 38 – (1915) 169-222) وثمة أطالس جغرافية لدراسة اللهجات العربية في مصر والشام والمغرب، وهي من أعمال المستشرقين. وفي هذا ما يدل على الاتصال والتزامن الوثيقين بين ما يطبق على اللغات الأوروبيَّة والشرقيَّة، وقد انعكس الاتجاه العام للبحث في اللهجات الأوروبية على دراسات المستشرقين، فقد أخذوا يولون اللهجات العربية الحديثة عناية خاصة... وقد بلغ من شدة اهتمام المستشرقين باللهجات الدارجة أن عدوها اللغات الجديرة بالدراسة دون الفصحى، فقد ذهب بعضهم إلى إنكار أن تكون الفصحى لغة حيَّة، قياسًا على واقع اللغتين اليونانيَّة واللاتينيَّة" [3]

ولا يخفى ما ينضوي عليه هذا التأثر بالفكر اللغوي الغربي، واهتمامه بالعامية على حساب الفصحى من مخاطر وخيمة، ومضار عظيمة، إضافة إلى أنه خطأ علمي يتمثل في فرض واقع لغوي على واقع لغوي مغاير، فالعامية ليست امتدادًا طبيعيًّا للغة الفصحى – كما هو واقع اللغات الأوروبية- وإنما هي نوع من التحولات والتحورات التي أصابت اللغة فأبعدتها – في الأعم الأغلب – عن صورتها الصحيحة، ولقد كان علماؤنا القدامى أكثر حصافة، وأسبق تنبُّها إلى فكرة إيجاد معايير ثابتة تدور في فلكها الأجيال التالية خطأ وصوابا، ومن هنا نشأت فكرة عصور الاحتجاج ببعديها الزماني والمكاني، والتوافر على تسجيل ودراسة وتقعيد ما وصل إلينا من عربية صافية في هذه العصور. " أما العصور التالية لعصر الاحتجاج فلم تحظ بدراسات تفصيلية مهمة.. أما أن توصف قواعد اللغة المتطورة في العصور اللاحقة بقصد المسير عليها فهذا مسعىً لا يقره القدماء؛ لأنه في أيسر ما يقال عنه: إنه خارج عن المعيار المنشود الذي تقره قواعد عصر الاحتجاج. ولذا كان في وسع المرء أن يَسِمَ منهج القدماء بصفة عامة جامعة، وهي المعيارية، وأن يسمي

---

[1] أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة (٨٩) بتصرف يسير.

[2] بحوث في الاستشراق (٣٢٨).

[3] المستشرقون والمناهج اللغوية (١١٠، ١١١).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

منهجهم بـ (المنهج المعياري).. وأصحاب المنهج المعياري يهتمون بالمحافظة على صفة (الثبوت) والاطراد اللذين يُلزمان الناس عبر العصور بهذه المعايير. ومما يسوغ اقتصار علمائنا القدماء على دراسة اللغة إلى عصر الاحتجاج، رغبتهم في الحفاظ على اللغة في صورتها التي ترتبط بالقرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وسيرة السلف الصالح من المسلمين الأُوَل، ولذا فإنهم لم يكترثوا بالعصور اللاحقة، إلا في الحدود التي تَشُدّ الناس إلى لغة المعيار الثابت، لغة عصر الاحتجاج" [1]

ولقد عانى الغربيون أنفسهم من عدم ثبات لغتهم وتطورها تطورًا سريعًا، فمن يدرس اللغة الإنجليزية في مراحلها التاريخية يجد أن كثيرًا " من تلك الألفاظ التي أَلِفها الناس في زمن تشوسر – أبو الشعر الإنجليزي كما يسمونه – قد أصبحت تحتاج في عهد شكسبير إلى مترجم أو مفسر لدلالتها، رغم أن ما مر بينهما من الزمن يعد قصيرًا في تاريخ الأمم، ذلك لأن اللغة الإنجليزية في تلك الفترة قد تُركت نهبًا للتطور والتغير، ولم تقيد بقيود تحول بينها وبين ذلك التطور السريع، بل تركت وشأنها حرةً طليقةً تصيب حظها الأوفر من الحياة والنمو. وقد كان من الممكن أن يتم لألفاظ هذه اللغة بعد عهد شكسبير من التطور في دلالتها مثل الذي حدث بعد تشوسر لو لم يستقر الأدب الانجليزي بعض الاستقرار خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر.. ومع هذا أو رغم هذا تطورت دلالات كثير من الألفاظ، وأصبح الناس لا يكادون يفهمون ما في أدب شكسبير من دلالات بعض الألفاظ، ويحتاجون إلى معاجم تاريخية للكشف عنها" [2]

وهنا نقطة أخرى في مسألة التأثر لها صلة وثيقة بالكلام السابق، وهي المتعلقة بنظرة المستشرقين للتطورات الحادثة في اللغة. فلقد عاب بعض المحدثين من الأوروبيين على قدمائهم نظرتَهم لمرحلة لغوية تاريخية على أنها المثل الأعلى الذي لابد أن يحتذى، وأنه إن كان من المقبول ذلك في الجانب التعليمي فإن لا ينبغي أن يطبق في دراسة اللغة، ثم يتحدث عن فكرة التطور عند القدماء مستهجنًا إياها بقوله: "ويزعمون أنه كانت توجد في العصر البدائي لغةٌ كاملةٌ ذات اطراد مطلق. وأنه لما كان التغير من قوانين اللغة، كان من المحتوم أن يسير تطور اللغة بها إلى الابتعاد عن مثلها الأعلى البدائي. لذلك يتكلمون عن التطور اللغوي في عبارات غريبة، فهو عندهم تشويه أو تحريف أو فساد! .. من العبث أن نؤكد أن الفرض القائل بأن هناك لغةً كاملةً قدّت في عهد سحيق مما قبل التاريخ فرض خيالي محض." [3] هذه هي نظرة الوصفيين للخروج عن القواعد المعيارية أنها عبارة عن تطور لغوي أو هو " تغيير في طرائق الاستعمال اللغوي" [4]

وهذه النظرة الغربية انسحبت – أيضًا- في محاولة دراسة واقع اللغة العربية، حيث " تبدو آثار الدهشة واضحة على النظرة العربية المعيارية التي اعتادت أن تنظر إلى انحرافات الكتاب صرفيًّا أو نحويًّا أو دلاليًّا على أنها أخطاء يَهُبّ من أجل إصلاحها نفر من

---

[1] المستشرقون والمناهج اللغوية (٢٤).

[2] دلالة الألفاظ (١٢٢، ١٢٣).

[3] المستشرقون والمناهج اللغوية (١٠٩).

[4] المراحل الزمنية للغة العربية الفصحى، ضمن كتاب بحوث في الاستشراق واللغة (٤٣٢).

الباحثين في مقالات أو كتيبات، أو حتى معاجم تؤلف لرصد الأخطاء الشائعة، في الوقت الذي نجد فيه محاولات أخرى لأصحاب المنهج الوصفي – المستشرقين والعرب- ينظر إليها من خلال هذه الأخطاء على أنها محاولات من اللغة للدخول في مرحلة جديدة، وعلى هذا فإن هذه الأخطاء – في نظرهم – ليست سوى ملامح جديدة أو مميزات لمرحلة جديدة وفي هذا المعنى يقول ستتكيفتش " إن العربية الحديثة تظهر إلى الوجود بقدر ما يحدث فيها من تغيير يجعلها مختلفة عن العربية القديمة أو الفصحى" [1]

إن هذا التأثر الواضح بالفكر اللغوي الغربي ليتجاهل تمامًا الواقع اللغوي العربي القائم على " أنَّ للعربية وضعًا خاصًّا يميزها في تطورها عن اللغات الأخرى بحكم ارتباطها بالقرآن الكريم، وعلى هذا فإن معاني العربية في مفرداتها وتراكيبها قد تتغير أو تتسع أو تضيق.. أما التَّراكيب الصَّرفيَّة والنحويَّة فتبقى على نمطها القديم. ولا يتجاوز ما يعتريها من تطور أن يكون وجوهًا من الجواز اللغوي القديم. فإن تجاوز ذلك فإن التجاوز في قواعد النحو والصرف عند العربي نوع من اللحن والخروج عن الصواب" [2]

وهذا كله يثبت أن وجود لغة تعتبر هي المثال الكامل والذي ينبغي أن يحتذى ليس ضربًا من الخيال، بل هو واقعٌ ملموسٌ، يجسده الهروع إلى لغةِ القرآن الكريم الأعلى فصاحةً وبلاغةً ولغةِ الشعر والنَّثر العربيين القديمين، وهو ما لا تعرفه اللغات الأوروبيَّة نظرًا لاختلاف طبيعتها عن العربية في هذا الشَّأن، وليس هذا قدحًا فيها أو حطًّا من قدرها، بقدر ما هو تفهُّم لاختلاف خصائص اللغات.

ثالثًا- التَّأثر بالفكر الداروينيِّ:

في القرن التاسع عشر ظهرت في أوروبا نظرية اعتبرت في هذا الوقت ثورةً علميةً ذاتَ آثارٍ واسعةٍ، تخطت المجال العلمي إلى اللغوي، فقد كان " لنظرية دارون وللعلم الطبيعي أثرهما في دراسة التَّغيرات اللغويَّة على وجه الخصوص.. فقد تأثر بها علماء اللغة – كما تأثر بها سواهم، ورأوا فيها – كما رأى غيرهم- حلًّا لكثيرٍ من المشكلات فظهرت حوالي سنة ١٨٧٠م مناهج جديدة للبحث في اللغة على أساس فلسفةٍ جديدةٍ أو تصوراتٍ عامَّةٍ جديدةٍ هي أن طبيعة التغيرات اللغويَّة نفس طبيعة التَّغيرات التي تحدث في العالم الطبيعي، ولاسيما عالم الحيوان والنبات.. فقد نظر اللغويون إلى اللغات على أنها كائنات يمكن تصنيفها حسب أنواعها.. وأنشأ اللغويون علاقات النسب بين اللغات واللهجات كما هو الحال في التَّاريخ الطبيعي" [3]

وفي ضوء هذه النَّظرة ظهرت فكرة أن اللَّهجات هي عبارة عن مرحلةٍ تاريخيةٍ متطورة عن اللغة القديمة، تعطى من العناية والاهتمام والتَّقعيد ما تم لها في مراحلها الأولى، وقد انتقلت هذه النَّظرة إلى تناول العربيَّة من خلال بعض المستشرقين، فعلى سبيل المثال حينما نادى (ولهم سبيتا) عام ١٨٨٠م بأفكارٍ منها " أنَّ العربية صائرة إلى الموت على نحو ما ماتت اللاتينية من قبل، وتوقع أن تَخْلُفَ العاميةُ الفصحى في ميدان الاستعمال، ودعا المصريين إلى الأخذ بالعامية؛ لأن في اتخاذها طوق نجاتهم مما كانوا عليه من

---

(١) المستشرقون والمناهج اللغوية (٨٩)، والعربية الفصحى الحديثة (٢٧٩).

(٢) بحوث في الاستشراق (٣٢٨، ٣٢٩).

(٣) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي (٢٧٠، ٢٧١).

تخلف ثقافي وحضاري" [١] وللإنصاف وفهمًا لهذا التأثر فقد وجدنا من ينصف سبيتا – ويتفهم فكرة التأثر الذي نعالجها في هذا البحث– فلا يجعله استعماريًّا ولا صليبيًّا فيما قال، بل هو باحث مشبَّع بالفكر الداروويني الذي كان مشغلة الباحثين الأوربيين أنفسهم [٢]. إذا فمشكلة (سبيتا) كانت في التأثر بالفكر الغربي وخطئه في محاولة تطبيقه على اللغة العربية، سواء عن سوء نية أو حسنها.

رابعًا– طرق دراسة النَّحو العربيِّ:

عندما أراد المستشرقون أن يدرسوا النحو العربي فقد بدا التأثر منهم واضحًا بطريقة العرب في مصطلحاتهم، وترتيب الأبواب، وغيرها من المظاهر، " وقد بدا هذا التأثر واضحًا في مؤلفاتهم اللغوية القديمة. ولو نظرنا في ملاحظات (فلايشر) في تعليقاته التي نشرها سنة ١٨٨٥م تعقيبًا على كتاب (النحو العربي) للمستشرق الفرنسي (دي ساسي) لوجدناها أقرب إلى النمط العربي في التفكير، وقد أكثر من استخدام المصطلح العربي... ولو نظرنا في كتاب (كاسباري) وعنوانه (النحو العربي) لوجدنا أنه قد تأثر تأثرًا كبيرًا في مضمونه ومصطلحه وطريقة معالجته بالدرس اللغوي العربي." [٣]

لكنّ المستشرقين المتأخرين بدأوا ينسلخون عن هذا التأثر وحل محله تأثرهم بالفكر اللغوي الغربي، فعلى سبيل المثال فإن فيشر W.Fischer حينما شرع في تأليف كتاب جديد في (نحو العربية الفصحى) أراد " أن يخلص كتابه تمامًا من آثار الدرس اللغوي العربي، من جانب المصطلح، ومن جانب طريقة التفكير، فهو يريد أن يسير على الطريق الغربية الوصفيَّة في دراسة اللغة العربيَّة... وقد قسمه على النحو الآتي:

ابتدأ بقواعد الكتابة فتحدث في ذلك عن الحروف، والخط، والصوائت القصيرة والطويلة، والتنوين، والتاء المربوطة، والهمزة، والمدة، والشدة، وهمزة الوصل.. ثم تحدث عن بعض الأساسيات الصوتية، ومما تناوله في هذا الفصل: وصف الأصوات العربية، والنبر والتنغيم، وتسهيل الهمزة، والإدغام، وبناء المقاطع، وحذف المقاطع وتقصيرها. وتناول بعدئذ المباحث الصرفية، وقد تناولها على الترتيب الآتي: الأسماء وقسمها إلى أسماء خالصة في الاسمية، وصفات، فالأفعال، فالضمائر والأدوات. وقد أجمل الضمائر والأدوات معا. وتحدث في هذا الباب عن الضمائر، وضمائر النصب، وأسماء الإشارة.. وحروف الربط وهي حروف العطف، و(إن) الشرطية و(إما).. وجعل المبحث الأخير للنحو، فتحدث عن العلاقة التي تربط الكلمة بالكلمة في الجملة، ثم عن العلاقة التي تربط الجملة بجملة أخرى، أو (ترابط الجُمل) على نحو ما يحدث في الجملة الحالية.. وأنهى فيشر كتابه بقوائم لتصريف الأسماء والأفعال كما هي الحال في كتب المستشرقين بعامة" [١]

---

[١] قراءة جديدة في قضية الدعوة إلى العامية (٦٤).

[٢] ينظر: السابق (٦٤، ٦٥).

[٣] بحوث في الاستشراق (٣١٤)، بتصرف يسير.

شبكة الألوكة www.alukah.net
إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وبنظرة سريعة على ترتيب كتب النحو العربية فسوف تلاحظ الاختلاف الكبير بين التناولين، مما يعد مظهرًا واضحًا من مظاهر تأثر المستشرقين بالفكر اللغوي الغربي.

كما أن المستشرقين حينما يتناولون النحو العربي بالدراسة قد يستخدمون أساليب غير معهودة عند العرب، من ذلك استخدام" الأساليب الإحصائية في الوقوف على أظهر مفردات اللغة وأشهر تراكيبها النحوية، مع مقارنة ظواهرها بظواهر غيرها من اللغات وبخاصة اللغات السامية" [٢]

وكما اختلف التناول فقد برز مظهر آخر خاص بالمادة اللغوية، حيث إن المستشرقين لم يقفوا عند حدود الاحتجاج الزمانية والمكانية المعروفة عند علماء العربية في دراساتهم، فالمادة " اللغوية عند هؤلاء المستشرقين لم تكن في الغالب الأعم هي الشواهد اللغوية المألوفة عند النحاة العرب، إذ وسّع المستشرقون دائرة مصادرهم فأخذوا من الأغاني للأصفهاني، ومن كتابات الطبري، والأحاديث النبوية.. ولم يلتزموا بمفهوم لغة الاحتجاج التي ألفناها عند العرب." [٣].

ومن القضايا النحوية التي يبدو فيها تأثر المستشرقين في دراسة العربية بالفكر اللغوي الغربي حديث البعض منهم عن أصل الإعراب في العربية، ومن ذلك ما "كتبه العالم (ريت) في محاضراته: (مقارنة نحو اللغات السامية)، وبيّنه الأستاذ (بروكلمان) في كتابه (مقارنة اللغات السامية) وهو أن أصل لواحق الإعراب لا تعرف معرفة يقين، ولكن يمكن أن يرى أن الفتحة أصلها ha وهي ضمير إشارة مستعمل في اللغات السامية، ولم يزل في الحبشية يلحق بالأعلام في حالة النصب إذا وقع عليها فعل ذو اتجاه، مثل: أقبل، وقصد؛ وأصل معناها في هذا الاستعمال الاتجاه إلى شيء أو شخص معين. وإذا صح هذا جاز أن نرى الضمة مشتقة من ho أي هو. أما علامة الجر فظاهر مشابهتها بياء النسب، وهي تفيد الكلمة معنى الوصفية.

وفي اللغات الهندية الغربية نرى لواحق الخفض مشتقة من لواحق دالة على الوصفية، ويساعد على هذا في العربية أن الصفة تجيء بعد الموصوف، فيقال: البيت الملكي. وباتحاد الموصوف بالصفة في المعنى، واللفظ بهما مرة واحدة استغني عن إعراب التالي، وخفّفت الياء فنشأ الخفض، وهو إعراب جديد" [٤] ولسنا هنا في مجال تفنيد هذا الرأي وإنما ما يهمنا أن" كل ما ذهب إليه المستشرقون في هذا الموضوع فروض، أساسها أن علامات الإعراب أثر لزوائد كانت تلحق الكلمات، ثم حذفت وبقي منها أثرها دالا عليها، وهو الإعراب. وهم في هذا متأثرون بنظام لغاتهم، وسبيل الإعراب والتصريف فيها. فقد يكون ذلك عندهم بمقاطع لا

---

[١] السابق (٣٢٢- ٣٢٤).

[٢] المستشرقون ونظرياتهم (١٥).

[٣] بحوث في الاستشراق (٣٢٥).

[٤] إحياء النحو (٤٣، ٤٤) إبراهيم مصطفى، ط. ثانية، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بحركات، وربما خفِّفت هذه المقاطع واختزلت بتأثير النَّبر واختلاف النطق، أو بغيرها من الأسباب، فبقيت منه حركة. هذا واضح في لغتهم ، مقرر في علمها، ولكن العربية لها منهج آخر مخالف لمناهج اللغات الغربية في الإعراب وفي التصريف" [(١)]

وفي النهاية فلعل القارئ يشاركني الرأي في أننا نستطيع أن نصل إلى فهم دقيق لكثير من الاختلافات في تناول المستشرقين للغة العربية عما عهدناه عند علمائنا العرب في ضوء اعتبارنا لتأثرهم بالفكر اللغوي الغربي الذي يتنمون إليه، فإذا أردنا أن نتفهم جيدا: اعتبار المستشرقين الانحرافات عن القواعد المعيارية نوعًا من التطور، أو دعوة البعض منهم للعامية، أو نظرتهم للفصحى القديمة على أنها ميتة أو في طريقها إلى ذلك، أو وصف العربية القديمة بالكلاسيكية وما ينبني على هذا الوصف من أحكام، أو اختلاف تناولهم للأبواب النحوية وتقسيمها وطريقة عرضها، أو عدم تقيدهم بحدود الاحتجاج الزمانية منها والمكانية، أو حديث البعض منهم عن أصل علامات الإعراب وأنها أثر لزوائد كانت تلحق الكلمات – أقول إذا أردنا أن نتفهم جيدا هذه الاختلافات ودوافعها فلابد من قراءتها في سياق تأثرهم بفكرهم اللغوي الغربي.

[(1)] إحياء النحو (٤٥).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

النتائج:

- للفكر اللغوي العربي خصائص متميزة لابد أن يضعها الباحث – خصوصا المستشرق– في حسبانه عند دراسة العربية.

- من الخصائص المميزة للفكر اللغوي العربي: ارتباطه بالقرآن الكريم، وطريقة جمع اللغة وحدودها الزمانية والمكانية، وظهور اللغة الأدبية المشتركة وانزواء اللهجات القديمة، وطريقة التقعيد النحوي التي بدأت وصفية محضة.

- يختلف الفكر اللغوي الغربي عن نظيره العربي في بعض الخصائص التي منها: بدء تقعيد اللغة على يد الفلاسفة مما جعله معياريا محضا، ووضع قواعد مستمدة من المنطق والعقل وليس من الاستخدام الفعلي للغة، تغير اللغة وتطورها تطورًا سريعًا؛ مما يشكل مراحل لغوية متتالية لكل منها خصائصها وسماتها.

- من مظاهر تأثر المستشرقين بالفكر اللغوي الغربي في دراسة العربية: النظرة الكلاسيكية للعربية– الاهتمام باللهجات المعاصرة على حساب الفصحى– نظرتهم للخروج عن القواعد المعيارية على أنه تطور طبيعي للغة– دارون وتجليات نظريته في الفكر الاستشراقي– الدرس النحوي من حيث التنميط والتقسيم.

- انعكس المفهوم الكلاسيكي للغة عند الغربيين على دراسة بعض المستشرقين للعربية، مما كان له آثار خطيرة تمثل بعضها في السخرية من التمسك بالفصحى ووصفها بالجمود.

- جعل مفهوم الكلاسيكية مقياسًا معياريًّا صالحًا لأن تخضع له اللغات كلها، يعد خطأ منهجيًّا يقوم على تجاهل ما تمتاز به بعض اللغات من خصائص تجعلها متفردة عن غيرها، خصوصا اللغة العربية.

- عدم ربط كثير من المستشرقين بين العربية والقرآن الكريم يفقد دراستهم الإطار المنهجي الصحيح لدراسة العربية، واقعين بذلك تحت تأثير طبيعة الفكر اللغوي الغربي المتحرر من هذا الترابط بين اللغة والنص المقدس.

- تختلف المراحل التاريخية للعربية عن نظيرتها الغربية، فالوشائج المقطوعة بين اللاتينية واللغات الأوروبية الحديثة ليست هي نفسها الوشائج المتصلة التي تربط الفصحى بما بين أيدينا من لغة معاصرة بمستوياتها المتعددة.

- يعد تأثر المستشرقين بالفكر اللغوي الغربي أحد أهم أسباب دعوتهم إلى العامية، وانطلاقًا من ذلك فنعتبر دعوة البعض منهم خطأ منهجيا وليس تعمدا للنيل من العربية كما قد يعمم البعض من ناقدي علم الاستشراق.

- العناية الكبيرة باللهجات المعاصرة من قِبَل المستشرقين والترويج لها يقع تحت تأثرهم بالمنهج الوصفي الذي ساد الفكر اللغوي الغربي في القرنين التاسع عشر والعشرين.

- تختلف نظرة المستشرقين للخروج عن القواعد المعيارية على أنها تطورات طبيعية للغة عن نظرة علماء العربية، والسبب في ذلك تأثرهم بالفكر اللغوي الغربي.

- تأثر المستشرقون في دراسة العربية بالفكر الداروييني الذي كان مسيطرًا على كثير من المجالات العلمية بما فيه المجال اللغوي- في القرن التاسع عشر، مما كان له أثره الكبير في وصف بعضهم للفصحى بأنها صائرة في طريقها إلى الموت على نحو ما ماتت اللاتينية.

- تأثر المستشرقون بالفكر اللغوي الغربي في الدرس النحوي على مستوى طريقة العرض، وتقسيم الأبواب، والشواهد.

- اختلفت نظرة بعض المستشرقين إلى أصل الإعراب في العربية تأثرا بنظام الإعراب والتصريف في لغاتهم.

- يتضح كثير من اختلافات المستشرقين في تناولهم للعربية ودوافعها في ضوء قراءتها في سياق تأثرهم بفكرهم اللغوي الغربي.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المراجع

- اتجاهات البحث اللساني ميلكا إفيتش، ترجمة سعد مصلوح، وفاء كامل، ط المجلس الأعلى للثقافة، ثانية ٢٠٠٠م
- الاحتجاج بالشعر في اللغة (الواقع ودلالته)، د. محمد حسن جبل، دار الفكر العربي ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- إحياء النحو، إبراهيم مصطفى، ط ثانية، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
- الاستشراق والمستشرقين ما لهم وما عليهم، مصطفى السباعي، دار الوراق- المكتب الإسلامي.
- أسس علم اللغة، ماريو باي، ترجمة: أحمد مختار عمر، عالم الكتب ط ثامنة ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.
- أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، د. نايف خرما، سلسلة عالم المعرفة، العدد التاسع، ١٩٧٨م.
- البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط. ثامنة، ٢٠٠٣م.
- بحوث في الاستشراق واللغة، د.إسماعيل عمايرة، مؤسسة الرسالة- دار البشير، ط. أولى ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
- تاريخ حركة الاستشراق (الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين)، يوهان فوك، ترجمة: عمر لطفي العالم، دار المدار الإسلامي، ط: ثانية، ٢٠٠١م.
- تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، د.نفوسة زكريا سعيد، الدار الأندلسية، ط: الأولى، ١٩٨٨م.
- دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط: خامسة، ١٩٨٤م.
- ضحى الإسلام، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية ١٩٣٥م.
- العربية الفصحى الحديثة (بحوث في تطور الألفاظ والأساليب) ستتكيفتش، ترجمة: محمد حسن عبد العزيز، دار النمر للطباعة، ١٩٨٥م.
- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، د. محمود السعران، دار الفكر العربي، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
- في اللهجات العربية، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ثامنة، ١٩٩٠م.
- اللغة بين المعيارية والوصفية، د.تمام حسان، عالم الكتب، ط: الرابعة ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
- اللهجات العربية في التراث، د.أحمد علم الدين الجندي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
- اللهجات العربية في القراءات القرآنية، د.عبده الراجحي، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٦م.
- اللهجات العربية نشأة وتطورا، د.عبد الغفار هلال، ط. ثانية ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، ت: محمد أحمد جاد المولي وآخرين، مكتبة الإيمان، ط. ثالثة.

- المستشرقون، نجيب العقيقي، دار المعارف، ط. الخامسة، ٢٠٠٦م.

- المستشرقون والمناهج اللغوية، د. إسماعيل عمايرة، دار حزين —الأردن، ط. ثالثة ١٩٩٢م.

- المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية، د. إسماعيل عمايرة، دار حنين — عمّان، ط. ثانية، ١٩٩٢م.

- المعجم العربي نشأته وتطوره، د. حسن نصار، مكتبة مصر، ط. الرابعة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

- المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، نوزاد حسن أحمد، جامعة قاريونس- بنغازي، ط. أولى ١٩٩٦م.

- موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، ر.هـ. روبنز، ترجمة: د. أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٢٧، سنة ١٩٩٧م.

دوريات:

- مجلة الآداب بالجامعة المستنصرية- بغداد: بحث (البحث اللغوي وصلته بالبنيوية في اللسانيات)، د.رشيد عبد الحميد العبيدي، العدد الثاني عشر، ١٩٨٥م.

- مجلة الجامعة الإسلامية: بحث (قراءة جديدة في قضية الدعوة إلى العامية)، د.عبد الله أحمد خليل إسماعيل، ، المجلد الخامس- العدد الثاني، ١٩٩٧م.

- مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة: بحث (الغرض من قرارات المجمع والاحتجاج لها)، الشيخ أحمد الإسكندري، العدد الأول، ١٣٥٣هـ- ١٩٣٤م.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المحتويات

مقدمة: ٢

المبحث الأول المستشرقون وتأثرهم بالفكر اللغويّ الغربيّ في دراسة العربيَّة ٤

(المدخل) ٤

أولًا– خصائص الفكر اللغويّ العربيّ: ٤

ثانيًا– خصائص الفكر اللغوي الغربي: ٩

ثالثًا– موجز تاريخ الاستشراق: ١٢

المبحث الثاني: المستشرقون وتأثرهم بالفكر اللغوي الغربي في دراسة العربيَّة ١٥

المظهر الأول– الموقف من العربيَّة الكلاسيكيَّة: ١٥

ثانيًا– الموقف من العربيَّة المعاصرة: ١٧

ثالثًا– التَّأثر بالفكر الداروينيِّ: ٢٠

رابعًا– طرق دراسة النَّحو العربيِّ: ٢١

النتائج: ٢٤

المراجع ٢٦